موكب الحج الشامي بدمشق[1]

كان موسم الحج في مدينة دمشق يعدّ في طليعة موارد العيش، حيث يدرّ الأرباح الطائلة على جميع أهلها طيلة العام.

وكانت دمشق أثناء حكم العثمانيين تنعم بأهمية خاصة جداً على اعتبارها (باباً للكعبة) كما دعوها آنذاك[2]، وكانت الطريق المؤدية من الشام إلى المدينة المنورة فمكة المكرمة هي الأقصر مسافة والأكثر سلوكاً من سائر البلاد المؤدية إلى الحجاز من جميع الأقطار الإسلامية الشاسعة. ولذلك دأب السلاطين العثمانيون على ترميم هذه الطريق وتعميرها وتوفير الأمن في ربوعها، فجعلوا في كل منزلة من منازلها قلعة لها جنود معينون لحراستها ولتأمين المياه للحجّاج في ذهابهم وإيابهم. وبوجه الخصوص نال الحج ومعه دمشق عناية خاصة من السلطان عبد الحميد .

وكانت دمشق نقطة التقاء الحجاج الذين يفدون إليها بطريق البَرّ منذ شهر رجب من كل عام من بلاد ما وراء النهر وإيران والأفغان والسند[3] والعراق والأناضول وسواها، فيجتمعون في هذه المدينة إلى منتصف شهر شوّال. وفي خلال هذه المدة يزورون الأماكن المقدسة، ويتاجرون مع أهل الشام فيبيعون ما حملوه معهم من مختلف المتاع، ويشترون لقاءه من المنتوجات الشامية ما يروق لهم للاستعمال والمهاداة والمتاجرة. وكان البعض من تجار حمص وحماة وحلب يأتون إلى دمشق في موسم الحج ويشتركون بهذه التجارة .

ثم يضاف إلى هؤلاء الحاج من يريد أداء الفريضة من السوريين أيضاً، فيبلغون في بعض السنين زهاء خمسة آلاف حاج بين رجال ونساء وخدّام يؤلفون الركب الشامي الذي يسير بانتظام ويقوده محافظ الحج (أو أمير الحج) الذي كان يعيّن من قبل السلطان العثماني شخصياً، لتأمين راحة الحجاج. وكان أمير الحج الشامي آنذاك عبد الرحمن باشا اليوسف، الذي حمل هذا المنصب بين ١٨٩٢ – ١٩١٨م.

وكان ركب الحج يبرح مدينة دمشق في المعتاد في منتصف شهر شوال من كل سنة (تحديداً يوم ١٦ شوال)، ويبلغ المدينة المنورة في أواسط شهر ذي القعدة. وبعد أن يمكث في المدينة ثلاثة أيام يشد رحاله منها قاصداً مكة المكرّمة، فيبلغها في أوائل ذي الحجة. وعقب قضاء المناسك يتحرك من مكة عائداً إلى المدينة المنورة فدمشق الشام، حسب المراحل التالية ذهاباً وإياباً:

مراحل الذهاب من دمشق إلى المدينة المنورة:

دمشق – تكية العسالي بالقدم – خان دنون – الكسوة – الكتيبة – المزيريب – الرمثا – المفرق – الزرقا – البلقاء – القطرانة – الحساء – عنزة – معان – العقبة – المدورة – ذات حج – القاع الصغير – تبوك – الأخضر – المعظّم – الدار الحمراء – مدائن صالح – آبار الغنم – بئر الزمرّد – البئر الجديد – هديّة – الفحلتين – آبار نضيف – المدينة المنورة.

المراحل من المدينة إلى مكة:

المدينة المنورة – آبار علي – بئر الماشي – الغرير – الريان – أم الضباع – ظهر العقبة – رابغ (عندها يدخل الحجيج في الإحرام) – القضيمة – عسفان – مكة المكرمة.

المعدّات

تشتغل مدينة دمشق بأسرها طيلة العام بالحجاج المسلمين، وإسكانهم خلال مكثهم فيها وإطعامهم والمتاجرة معهم، ثم بإعداد ما يلزمهم ويلزم الصرّة السلطانية من الزيوت والشموع والمياه العطرية كماء الورد وماء الزهر، التي ترسل إلى الحرمين الشريفين لغسل الكعبة والحجرة النبوية (الروضة الخضراء) بهما. ثم بإحضار معدّات الركب من جمال وبغال وخيول ركوب (رهوانات)[٤] وخيام (مضارب) ومحاير[٥] (محفات) وتختروانات[٦] (سُرُر) وقِرب ومطرات وأقبية (عبي ومشالح) وكفافي وعكل واحرامات وأحذية وثياب وصناديق وأرسان (أعنّة) وسروج ورواحل وحلقات وأجراس وكلاليب وأكمار ومشاعل وفنارات وقطران وشموع، إلى غير ذلك مما يحتجه الحجاج في رحلتهم.

ثم بتهيئة الزاد والذخيرة بين كعك وبقسماط[٧] وجبن ولحم مقلي ومعجنات وخضار مجففة ومربيات وشرابات وما شاكلها. ثم بعلف الدواب وترتيب الرجال الذين يسيرون في خدمة الركب، فيقودون الجمال ويعلفونها وينصبون الخيام وينقضونها ويملأون الماء ويجمعون الحطب ويطبخون الطعام، وهؤلاء يقال لهم بصيغة الإفراد: عكّام، مكاري، قاطرجي[٨]، مهتار، سقّا، حمّال، أجير.

وتعيّن الحكومة بطريقة المناقصة من بين المقتدرين رجلاً يقال له (المقوِّم)، يقوم بتقديم الجمال وغيرها من المطايا اللازمة للركب في الذهاب والإياب، بحيث إذا هلك أحدها في الطريق يقوم بتقديم غيره في الحال، وذلك لقاء أجرة مقطوعة تعينها الحكومة وتعلنها على الملأ. وتأخذ من المقوِّم كفلاء كي لا يقصّر بواجبه، وإذا قصّر تنوب الحكومة عنه بتأمين مطايا الحجّاج في الطريق. وكذلك تعيّن

الحكومة سرية من الجند تتألف من مئتي جندي من راكبي البغال وترفقها بمدفعين جبليين مع ذخائرهما لتأمين المحافظة على الحجاج من تعدّي اللصوص في الطريق.

السنجق

عندما يتكامل الركب، تخرج أولاً الشموع والزيوت والعطور من دار مستلزمها [متعهدها]، فيحتفلون بها حرمة للمقامات المهداة إليها، ثم يخرج لواء الرسول الأعظم من مسجد الصحابي الجليل أبي الدرداء (عامر الخزرجي الأنصاري) في قلعة دمشق، ويؤتى به من سوق البوابجية فالأبّارين فالمحايرية[٩] فالسروجية فجامع السنجقدار، حيث يصلي القوم صلاة العصر جماعة، ثم يطاف باللواء (السنجق) إلى قصر المشيرية (السراي العسكرية – عند موقع القصر العدلي حالياً) ويوضع في قاعتها الكبرى، وتتلى قصة المولد النبوي الشريف تيمناً وتبركاً، ويظل اللواء ليلة في هذه الدائرة تحت حراسة الجند. وتطق المدافع عند خروجه من القلعة، ولدى وصوله إلى الجامع، وعند خروجه منه، وحين دخوله من باب السراي.

المحمل

المَحْمَل هو في الأصل الهودج (العطفة) الذي تركبه نساء العرب أيام الحروب لحث الرجال بالنخوة للدفاع عن العرض والوطن، ثم اتخذ في القرون الوسطى كرمز لموكب الحج، وأقرّه سلاطين بني عثمان وصار عنواناً للموكب يروح ويغدو معه في كل عام. وهو عبارة عن محفة كبيرة مجلّلة بالديباج ومنقوش عليها بعض الآيات القرآنية والطغراء السلطانية، ولها رصافات مموهة بالذهب. وكان الاحتفال بخروج هذا المحمل مع الحجيج وعودته بموكب عظيم على النحو التالي:

كان يوم المحمل بدمشق، وهو اليوم الذي يلي خروج السنجق، والذي يبدأ فيه جموع الحجاج بالمسير نحو القبلة، يعدّ من الأيام العظيمة، حيث تعطل فيه الأعمال في دوائر الحكومة وفي أغلب أسواق المدينة، وخصوصاً على الطريق الطويلة المستقيمة (الدرب السلطاني)[١٠] التي يسير عليها موكب الحج من سراي العسكرية[١١] إلى بوابة الله فالعسالي[١٢] على مسافة تقرب من ١٦ كيلومتراً. وكان يخف إلى دمشق عدد غير قليل من أهل البلاد والقرى المجاورة للاشتراك بالفرجة على الركب والاحتفاء به ووداع الحجّاج الراحلين.

ومنذ بزوغ شمس ذلك اليوم ينهض جميع سكان المدينة تقريباً وروادها من نساء ورجال وشيوخ وأطفال، وينتشرون على تلك الطريق ويملئون الحوانيت والأسطح وطاقات المنازل وشرفات المآذن. وعند الضحى حيث تكون القافلة أخذت

بالمسير يُحمل المحمل على جمل ضخم الجثة ويُسار به وبالسنجق من ورائه بموكب رسمي يتقدّمه نقيب السادة الأشراف بملابسه الخضراء ثم أمين الصرّة السلطانية[١٣]، ومحافظ ركب الحج الشريف، ثم أصحاب المراتب السلطانية من علمية وعسكرية وملكية، بملابسهم الرسمية على أصول التشريفات السلطانية[١٤].

ويغادر هذا الموكب باب السراي بين أصوات المدافع وضجيج الخلق، تحفّ به كوكبات الجند من مشاة وسوارية (فرسان) وسرايا الدّرك والشرطة، وتلامذة المدارس العسكرية والملكية، ورجال الطرق الصوفية مهللين مكبرين. ومن أمام المحمل وخلفه تسير جوقتان من أجواق الموسيقى العسكرية تتناوبان العزف بالألحان العسكرية، وعلى نقاط متقاربة على جانبي الطريق تصف فصائل الجنود المختلفة لتحية الموكب الذي يقطع هذه المسافة بحوالي ثلاث ساعات على الأقل.

وعقيب وصول الركب إلى المضارب التي تكون قد أعدّت على دكّة المحمل في العسالي، يخف لاستقباله والي الشام (الباشا) ومشير جيشها، اللذان يكونان قد حضرا سلفاً لتشييع الركب. ثم توزع الحلوى والمرطبات على الحاضرين، ويُسلم المحمل واللواء إلى محافظ الحج، حيث يضمهما في صناديق محكمة يتولى حراستها الجند، ويبيتان ليلتهما في العسالي.

الركب

ينطلق الحجاج الذين يؤلفون الركب ويغادرون دمشق ميمّمين شطر القبلة، ويرافق بعضهم لفيف من الأهل والأصدقاء بغية وداعهم من مسافات مختلفة تختلف بنسبة استطاعة المودعين، ويتبعون جميعاً تلك المراحل التي ذكرناها آنفاً. وعندما يبلغ الركب أول مرحلة من مراحله، يكون العكامون ورفاقهم قد سبقوا إليه، ونصبوا الخيام وأعدوها على شكل مدينة صغيرة ذات أزقة متعددة، وهيأوا الماء والحطب وسائر أسباب الراحة. فينزل كل حاج في خيمته ويعلم موقعها الذي لا يتبدل طوال الطريق في الذهاب والإياب، وتربط المطايا خلف الخيام وإلى جانبها الرحال والأحمال.

وتنار أزقة المضارب ليلاً بالمشاعل التي توقد بالقطران، وباطن المضارب أيضاً ينار بالفنارات ذات الشموع. وبينما الحاج يتوضأ ويصلي ويتلو أوراده، يكون العكام قد أعد له الطعام فيأكله بلذة وهناء. وفي أوقات الحط والاستراحة يتزاور الحجاج بين بعضهم ويتسامرون ويتحادثون. وقد جرت العادة أن يكون قيام الركب ونزوله بانتظام تام، متجمعاً غير متفرق، كي لا يضل أحد في الطريق التي تماثل بعضها، ولذلك يطقون المدافع عند الرحيل ووقت اللزوم.

المطايا

مطايا الحجاج ثلاثة أنواع: التخترونات والمحاير والرهاوين. و**التخترون** كوخ خشبي ذو باب يحمل على جملين أو بغلين متقابلين، ويجلس فيه رجل واحد مرتاحاً، و**المحارة** محفّة تحمل على جمل وتغطى بأقمشة مزخرفة على طراز أقمشة الخيام من نسيج دمشق، ولها مقعدان يجلس ويرقد فيهما حاجان اثنان. و**الرهاوين** يختارها بعض الحجاج ويفضلونها على المحارة لأنها تساعد على النزول في الطريق، حيث توجد مقاه سيّارة ترافق الركب في مسيره، فيشربون فيها القهوة ويدخنون الأركيلة. وأكثر مسافات المراحل طويلة، لذا يجعلون في منتصف المسافة ساعة استراحة ينزل فيها الحجاج ويقضون حاجاتهم ويصلّون ويأكلون ويشربون ويعلفون دوابهم، ثم يرحلون على أصوات المدافع أيضاً.

الإحرام

لمّا يبلغ الركب أرض رابغ، وهي من أرض مكة، يدخل الحجاج في الإحرام، أي يبدءون بأداء المناسك، فيخلعون ثيابهم، ويرتدون مآزر بيضاء غير مخيطة.

الجردة

الجردة إرسالية تجارية تنقل للحجيج ما يحتاجه من مأكل وملبس وغير ذلك من اللوازم الضرورية. وهي كانت تبرح دمشق في الأسبوع الأول من شهر ذي الحجة تحت محافظة سرية من فرسان الدرك، وتلتقي بالركب في منزلة هديّة، فتقيم في هذه المنزلة وما بعدها من المنازل سوقاً تجارية سيّارة.

عودة الحجاج

يعود ركب الحج الشامي إلى دمشق في منتصف شهر صفر، وقبل وصوله يقوم أهل الحجاج وذووهم بإعداد أسباب الإكرام والضيافة لهم والاحتفاء بهم وبحاشيتهم، فيجهزون لكل حاج وحاجة كسوة جديدة، وقد تتعدد فتكون أكثر من واحدة. ويذهبون لاستقبالهم ويعودون معهم فرحين بلقائهم، وتقام لهم الأفراح عقب وصولهم سبعة أيام بلياليها، والناس تخف إلى دورهم للسلام عليهم والتبرك بهم. وقد يأتي الحجاج ببعض الهدايا من المنتوجات والمصنوعات الهندية، ومن تمر المدينة المحبب المدعو (جلبي)، وهو كبير الحجم صغير النواة لا مثيل له في سائر الجهات، ومن ماء زمزم والحناء وغيرها.

الهوامش

(١) النص مستقى من كتاب (مرآة الشام) لعبد العزيز العظمة ص ١١٠

(٢) **باب الكعبة**: لقب أطلق على دمشق في صدر الإسلام على اعتبارها نقطة الالتقاء التي يمر منها الطريق البرّي من الشام عموماً إلى الحجاز.

(٣) **السند**: المقصود به هنا عموم الباكستان، والصواب أنه أحد أقاليمها يقع في جنوبها الشرقي على المحيط الهندي، عاصمته حيدر آباد ومن مدنه كراتشي.

(٤) **الرهوانات** جمع رهوان (أو رهوانة) بلهجة العامة، يراد بها المطايا سلسة القياد من الخيل غير العتاق، كانت تستعمل للركوب اليومي، وغالباً ما تكون هجينة، وهي في الفصحى تسمى (البَراذين) جمع بِرْذَون.

(٥) **المحاير**: جمع محارة، وهي شبه صندوق أو مقعد خشبي مفرد أو مزدوج يوضع على عاتق البعير ويستعمل لركوب المسافرين في الحج وغيره.

(٦) **التختروانات**: مفردها تَختروان، وهي كلمة فارسية تعني محفّة كبيرة ذات عوارض خشبية تُحمل بين بعيرين، يركب فيها المسافر ويتمكن من الاستلقاء والنوم براحة.

(٧) **البقسماط**: نوع من كعك الشعير يُجفف تماماً ويستعمل كمؤونة احتياطية للسفرات الطويلة.

(٨) **قاطرجي**: كلمة تركية تعني البغّال أو من يسوسها، من (قاطر Katir) وهو البغل في التركية.

(٩) **سوق البوابجية والأبّارين والمحايرية**: من الأسواق الشهيرة قديماً بدمشق، كانت تقع على المنكب الشمالي للقلعة بدءاً من زاويتها الشمالية الشرقية في محلة باب الفرج، ثم وصولاً إلى زاويتها الشمالية الغربية التي تؤدي بعد ذلك إلى محلة السنجقدار. أمّا سوقا البوابجية والأبّارين فقد زالا وبقي الأخير.

(١٠) **الدرب السلطاني** أو الطريق العظمى بدمشق تسمية كانت تطلق في العهد المملوكي على الدرب الذي كانت تسير عليه مواكب السلاطين والأمراء والوفود الرسمية ما بين مصطبة السلطان في القابون شمالاً وقبة يلبغا في القدم جنوباً. وبقي الاصطلاح موجوداً في العهد العثماني على الجزء الممتد ما بين محلة السنجقدار وبوابة الله أسفل حي الميدان، وهو درب محمل الحج كما هو مبين أعلاه.

(١١) **السراي العسكرية**: المقصود بها دار المشيرية أي القيادة العسكرية للجيش السلطاني (العثماني) الخامس، وكان موقعها سابقاً إلى الغرب من باب النصر في مكان القصر العدلي اليوم.

(١٢) **العسالي**: هي التكية التي أنشأها في قرية القدم والي دمشق العثماني كو ك أحمد باشا عام ١٠٥٤ هـ عند ضريح المتصوّف الشيخ أحمد العسالي. وكان سنجق الحجّ يودع فيها، وهي قائمة إلى يومنا الحاضر.

(١٣) **أمين السرّة**: هو المسؤول في موكب الحج عن جميع مصارفه المالية والتي كانت تتكفّل بها الخزينة السلطانية، ويطلق على هذه الرتبة في التركية: صرّة أميني، أو: صرّ أميني.

(١٤) كانت العادة آنذاك إطلاق التحيّة السلطانية الشهيرة: (باديشاهم چوق يَشا)، ومعنى هذه العبارة بالتركية: عاش مولانا السلطان. ثم استبدلت عند استيلاء الاتحاديين على الحكم بهتاف: (حرّيّت يا شاسِن) ومعناها: تحيا الحرية.

محمل الحج الشامي في حي الميدان

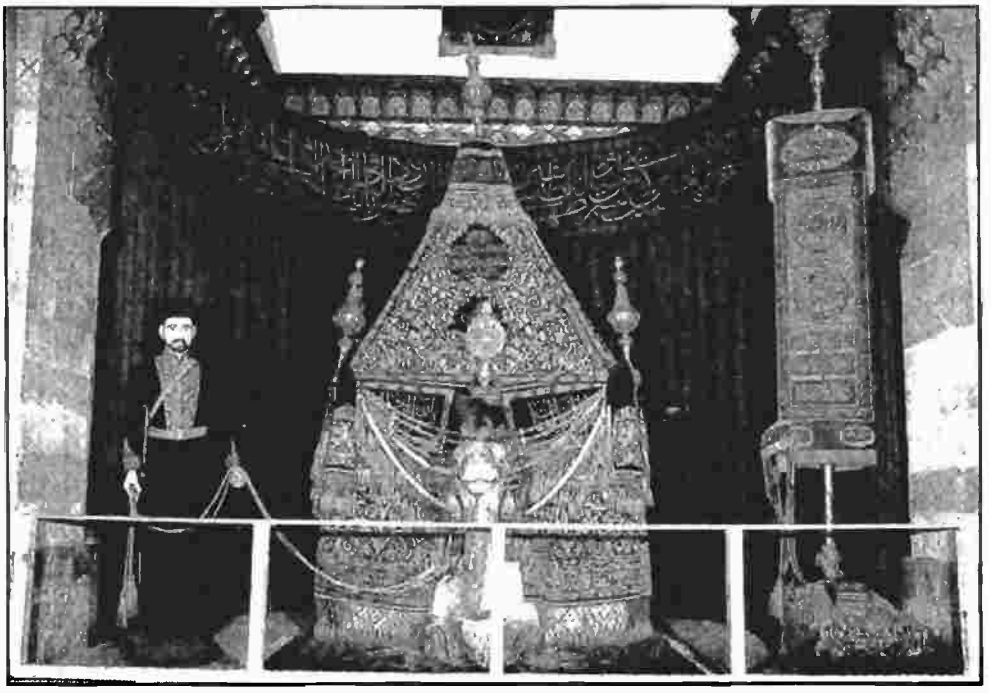

أمير الحج والمحمل الشريف (معروضات متحف التقاليد الشعبية بدمشق)

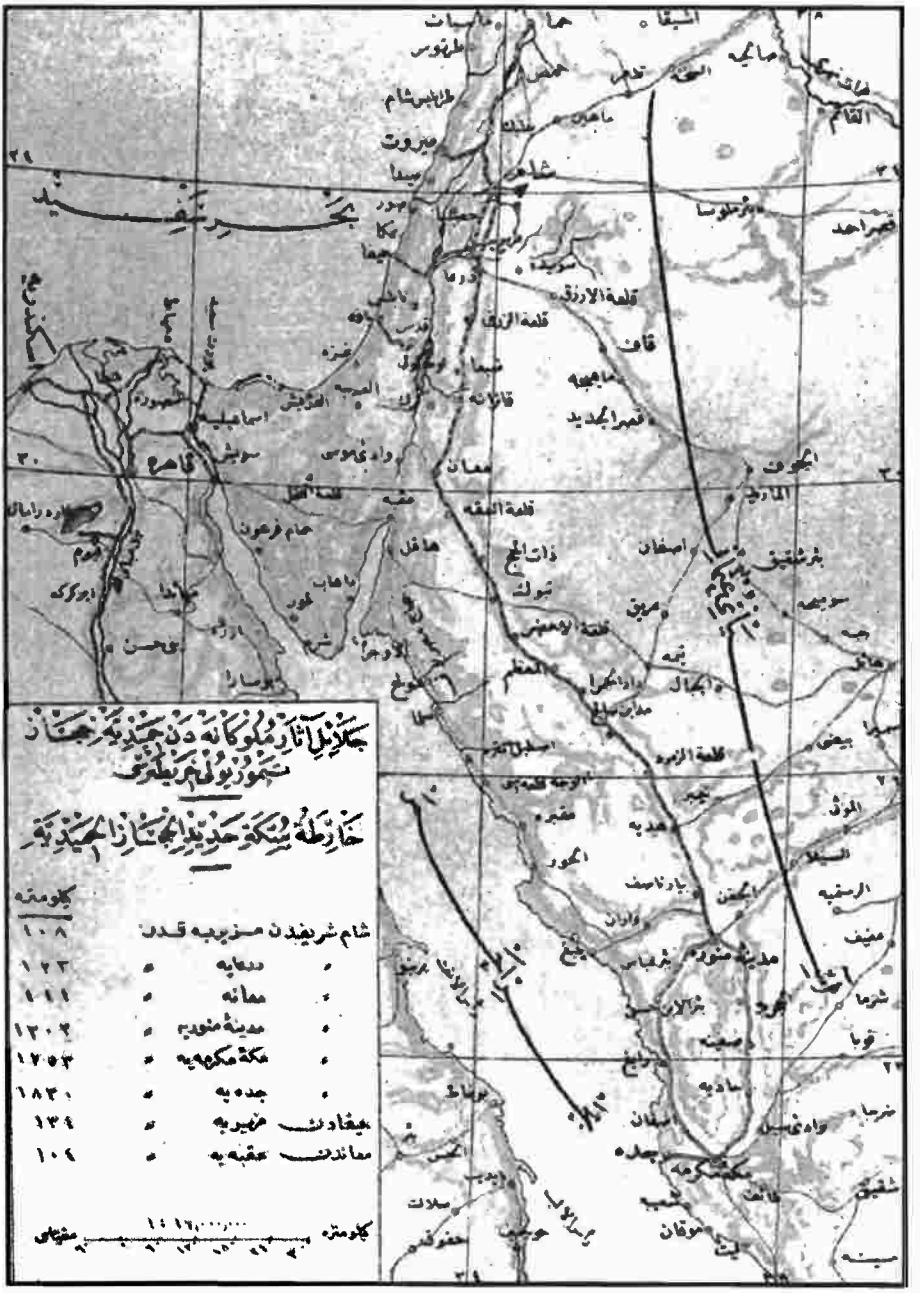

خارطة سير الخط الحديدي الحجازي